مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد : 13 عدد 27 السنة :2021

الجغرافيا الغروتسكية في السرد العربي الوسيط

Grotesque Geography in medieval Arab narrative

د. نورة محمد فرج قاسم الخنجي

التخصص: اللغة العربية – الأدب والنقد

أستاذ مشارك – قسم اللغة العربية -كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر

جامعة قطر ص. ب 2713 الدوحة - قطر

nourafaraj@qu.edu.qa

تاريخ الاستلام: 2021/09/08 تاريخ القبول: 2021/12/29 تاريخ النشر: 30/12/ 2021

الملخص:

لقد بنى العرب على مدى الزمان تصوراتهم عن البلاد الأخرى المجهولة أو شبه المجهولة، حسبما أظهرت المدونات السردية بدءًا من العصور الإسلامية الأولى، وصولًا إلى العصر الإسلامي الوسيط الذي شكل صعود الأدبيات الجغرافية على نحو خاص، تدخل ضمن هذه السرديات كتب الرحلات ومعاجم البلدان وكتب التأريخ الجغرافي. في هذه المدونات تظهر أمكنة حقيقية وأخرى متخيلة، ذات صفات أو أحداث خيالية ذات بعد غرائبي، وكذلك تأخذ المخلوقات التي تسكنها أشكالًا غروتسكية، تتناسب مع الطابع غير المألوف الذي يسود هذه الأمكنة، فالمخيال الذي أنتج هذه المخلوقات اعتمد التقنيات الغروتسكية في بناء هيئتها، مثل تقنية التركيب/ المزج، كالبشر ذوي رؤوس الكلاب والحيوانات ذات رؤوس البشر وأجنحة الطيور، وكذلك تقنية التشويه، كالنسناس ذي الشق الواحد، الذي له عين واحدة وأذن واحدة ونصف وجه ونصف جسد وذراع واحدة وساق واحدة، وأيضًا تقنية الإفراط في الحجم سواء بالعملقة أو بالتقزيم. بعض هذه المخلوقات يتكرر في أنحاء جغرافية مختلفة، فيما بعضها يظهر في ناحية جغرافية واحدة، ومنها ما يرجع أصله إلى الانمساخ عن البشر أو الحيوانات، فيما الآخر يعتبر خلقًا أصليًا.

Summary

Over the ages, Arabs built their own visualizations on other unknown and semi-unknown countries. That appeared in narrative inscriptions starting from the early Islamic ages, continuing to medieval Islamic ages that saw the rise of geographic literature. It included travel books country encyclopedia and geographical history books. These inscriptions show actual and imagined localities, with imaginative characteristics or events with an exotic perspective; or imagined creatures that inhibit such localities. Such creatures appear with grotesque shapes, as the imagination that created such species used grotesque techniques in its building, such as combination. For example, the combination of humans with dog heads and animals with human heads and wings. Another example is disforming; such as the one sided Blemmys, with one eye, ear, face, torso, arm, and leg. A further example is size exaggeration such us giantism and dwarfism. Some of these creatures appear in multiple geographies, such as the Blemmys, while others appear in only a single locality or a single inscription. Some of these creatures trace their origin to monesterizing humans or animals, and others appear to be an original creation.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربي – مسوخ – السرد – الغروتسك – السرد الوسيط

توطئة:

لقد شكل العرب على امتداد العصور الإسلامية تصوراتهم الخاصة عن البلدان الأخرى، التي تقع خارج دائرتهم العربية أو الإسلامية، أو حتى تلك البلدان التي لا تصنف على أنها من الحواضر العربية المركزية، وبذا تتشكل مساحة جغرافية شديدة الاتساع، بعض الأمكنة فيها كان مجهولًا تمامًا بالنسبة للعرب، وبعضها كان نصف مجهول، وبعضها كان متخيلًا، فيما البعض الآخر كان حقيقيًا، غير أن سمات وتفاصيل غير واقعية أسندت إليه.

في أحيان كثيرة، كانت تنبني حول هذه الأمكنة سرديات خاصة بها، من خلال حكايات يسردها المدون نقلًا عن آخرين، سواء تدوينًا أو سماعًا، وقد أُعطيت هذه الجغرافيات سمات بيئية غير مألوفة، وبطبيعة الحال فإن أمكنة بهذه المواصفات تستدعي ظهور مخلوقات تتناسب معها في الغرابة، ومن هنا بنيت العديد من صور المخلوقات الغروتسكية في الأدبيات الجغرافية العربية.

إن الغروتسك Grotesque في تعريفه الأبسط يتألف من جمع عناصر بشرية إلى أخرى شيطانية أو حيوانية، أو نباتية، أو عناصر غير حية، أو إزالة أجزاء من الجسد، أو تغييرها أو إضافة جزء أو تضخيم أجزاء أخرى منه، أو إعادة تشكيل البنية الجسدية كلها، وفق حالات "النشاز وعدم التناسق" و"وربط الأضداد"[1]، كما أن الغروتسك يعتمد "التشويه الخارج عن المألوف" و"الضدية الثنائية بين المألوف وغير المألوف"[2] الذي يقوم على تجاور العناصر المتعارضة على نحو متطرف، للوصول بها إلى الرعب والصدمة والإدهاش، وخلق ردود فعل متعارضة عند المتلقي، ما بين النفور والانجذاب في الوقت نفسه، وهذا ما سعت إليه السرديات المكتوبة والشفاهية، على درجات متفاوتة. إن الغروتسك في العصر الحديث والمعاصر أيضًا قد يخرج عن هذه السمات ليبقي على معيار القبح المتطرف، لكننا في هذا البحث سنعتمد التعريف الغروتسكي الذي ساد في العصور في العصور الوسطى وعصور النهضة الأوروبية، وهو الذي يركز على تأليف المخلوقات غريبة، بغض النظر عن مستويات القبح فيها.

نجد هذا في المدونات العربية، كتب الرحلات والحكايات الشعبية، كما نجده في كتب التصنيفات الجغرافية، وكتب التأريخ، فهذه النصوص غير الأدبية تتضمن مقاطع سردية تحمل سمات حكائية، تبتعد بها عن الشروط العلمية الرصدية الصارمة، وتنحو باتجاه تحفيز خيال المتلقي ومشاعره.

يرى المستشرق الروسي أغناطيوس يوليانوفيتس كراتشكوفسكي أن الرحلات العربية اتخذت "طابعًا جم الحيوية والنشاط منذ القرون الأولى للخلافة، وكما هو معلوم فإن من فروض الإسلام حج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا، أي إذا ساعدت الظروف وكانت الطرق مسلوكة. كما استخدمت التجارة الطرق البرية والبحرية على السواء، وتأتّى من هذا ربط أقاصي أراضي الخلافة بعضها ببعض، بل إن التجارة تجاوزت/ تلك الحدود فجذبت في فلكها أواسط أفريقيا وشمال شرقي أوروبا وجنوب شرقي آسيا؛ وهي التي ابتدعت تلك الشخصية الخالدة، شخصية السندباد البحري الذي ترتبط أسفاره بالأدب الجغرافي ارتباطًا أوثق

[1]. البازعي، سعد، وميجان الرويلي، *دليل الناقد الأدبي*، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، 2002، مادة (القبح).
[2]. المرجع السابق، مادة (القبح).

مما كان يظن من قبل. وهكذا ساعد الدين والتجارة على توسيع مدى الأسفار"[1]، كما أن طلب العلم الذي يحث الإسلام عليه كان سببًا كذلك في اتساع رقعة الرحلات الخاصة بغايات العلم وحده.

أما بالنظر إلى المسار الزمني الذي سارت عليه هذه النصوص، نجد أن قبل "القرن التاسع لم تكن هناك مصنفات جغرافية قائمة بذاتها، إنما تقابلنا من وقت لآخر معلومات جغرافية متناثرة حفظها لنا الأدب اللغوي فيما بعد أو تردد صداها في الرحلات الخيالية. وقد كان القرن التاسع بحق عصر الانبثاق"[2]، ومن هنا يتشكل العلم الجغرافي عند العرب، متجاورًا مع السلطة التخيلية، "أما القرن العاشر فهو العصر الذي بلغ فيه الأدب الجغرافي أوجه، وذلك بظهور المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب بما تميزت به من اهتمامها بوصف (المسالك والممالك) وصلتها الوثيقة بـ(أطلس الإسلام) الذي يمثل قمة الكارتوغرافيا عند العرب، أي فن رسم المصورات الجغرافية أو الخرائط."[3].

ومنذ القرن الحادي عشر، وتحديدًا في القرن الثاني عشر، انضمت شيئًا فشيئًا مصادر من نوع جديد، هي "المعاجم الجغرافية والأوصاف العامة لجميع العالم سمائه وأرضه؛ وهي ضروب من الكوزموغرافيا فريدة في نوعها... بهذا ينتهي الطور الخلاق في الأدب الجغرافي العربي الذي أصابه العقم بعد ذلك، فلم ينتج أي صور جديدة، بل اكتفى بتقليد الأنماط السابقة."[4].

على هذا يمكن أن تتحدد عصور الازدهار الجغرافي على أنها "العصور الوسيطة في المشرق من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر"[5]، وقد ظهر فيها اتجاه كتابة "الجغرافيا الأسطورية"[6]، التي سادت على نحو كبير، وفيها "قد حدث بالطبع خلط بين التصورات الجغرافية المبنية على الواقع من جهة والحكايات والأساطير من جهة أخرى"[7]. وقد اعتبر كراتشكوفسكي ما نتج عن هذا الخلط قيمة مميزة للأدبيات الجغرافية العربية، أي المكتوبة باللغة العربية وإن كانت من نتاج غير العرب، فيقول: "الأدب الجغرافي العربي والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة والإمتاع والحيوية من جهة أخرى؛ وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص. ولقد أثار هذا الأدب اهتمامًا بالغًا بسبب تنوعه وغنى مادته، فهو تارة علمي وتارة شعبي، وهو طورًا واقعي وأسطوري على السواء، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة"[8]،

[1]. كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفيتس*تاريخ الأدب الجغرافي العربي*، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1987، 21.
[2]. المرجع نفسه، 23.
[3]. المرجع نفسه، 23.
[4]. المرجع السابق، 23.
[5]. المرجع نفسه، 34.
[6]. المرجع نفسه، 59.
[7]. المرجع نفسه، 61.
[8]. المرجع نفسه، 28.

وقد ظهرت لفظة جغرافيا علم المسالك والممالك و"علم تقويم البلدان وعلم الأطوال والأعراض"[1]، كذلك ظهر تصنيف آخر، فإذ "غلب الجانب الكوزموغرافي – أي في وصف الكون- بما يصحبه من ميل واضح نحو العجائب والغرائب فقد استعملت تسمية (علم عجائب البلاد)"[2]، ويسوق كراتشكوفسكي ياقوت الحموي نموذجًا: "هو جماع للجغرافيا في صورتها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات أيضًا، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والإثنولوجيا (علم الأعراق والفصائل البشرية) والأدب الشعبي والأدب الفني"[3].

لكن الملاحظ أن ياقوت الحموي يتحفظ في تدوين بعض الأخبار التي ترد إليه من العامة عن بعض المدن والأماكن، فإما أنه يعرب عن رفضه تصديقها من جهة، أو يبرر إيرادها بانتشارها بين الناس، ثم يعتذر ياقوت معللًا ذلك بأنه لو لم يجدها في كتب العلماء لما نقلها. إذن تحفظ الجغرافيون أحيانًا عند تدوين هذه الأخبار، لكن هذه السرديات والأخبار "ليست وليدة توهم كتّابها. بعبارة أخرى: إن هؤلاء الكتاب لم يصرفوا أوهامهم الفردية إلى ما كتبوه، كما يفعل سكان المدن الفاضلة أو الجاهلة، بل دونوا ما كانت قد ذهبت إليه أوهام الناس من قبلهم. كما أن الملحوظات الحصيفة التي يبديها بعض هؤلاء المؤلفين على صحة ما يروون، تدعونا إلى التحرز من اتهامهم بالسذاجة المطلقة، فقد دونت تلك الروايات مع شيء من التحفظ ربما خالطه ميل دفين إلى الإمتاع"[4]. كما أننا يمكن أن نجد تفسيرًا لما يرويه الرحالة عند مشاهداتهم غير القابلة للتصديق، كحالة سلام الترجمان الذي "ربما كان سمع من الناس العامة في بلاد الخزر ثم نقله على أنه مشاهداته الشخصية/ الخاصة"[5].

من جهة أخرى، إن رحلات سندباد لم تكن منفصلة عن الحركة الجغرافية التي سادت في تلك العصور، بل غذتها وساهمت في تنميتها وتعزيزها ومد مساحتها السردية، وكذلك مساحة تلقيها.[6] فالمرجعيات "في ألف ليلة وليلة تتشابك مع المتخيل العجائبي في السرد العربي القديم، إذ إن النص العجائبي في الليالي ينفتح على جغرافيا المتخيل في كتب الرحلات، وكتب الكونيات، وينفتح كذلك على العجائبي في المرويات السيرية والحكائية، والكرامات، والمنامات"[7].

[1]. المرجع نفسه، 22.
[2]. المرجع نفسه، 23.
[3]. المرجع نفسه، 359.
[4]. المرجع نفسه، 195.
[5]. حسن، زكي محمد، *الرحالة المسلمون في العصور الوسطى*، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، 18.
[6]. للمزيد: *تاريخ الأدب الجغرافي العربي*، 161-162.
[7]. صحراوي، إبراهيم، *السرد العربي القديم: الأنواع والوظائف والبنيات*، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، 2008.

على ذلك يمكن تحديد مصادر تكوين هذه الجغرافيا الغروتسكية عند المدونين والمؤرخين والقصاص والرحالة، نوردها فيما يأتي:

- النقل من كتب العلماء الذين قبلهم.
- ما سمعوه من العامة/ الخاصة في البلدان التي ذهبوا إليها.
- مخيلتهم الخاصة.

والمتتبع لأشكال المخلوقات التي ظهرت في هذه السرديات يجد أنها تتخلق وفق ثلاث تقنيات غروتسكية:

1- التركيب/ المزج Composition.

2- التشويه Distortion.

3- المبالغة/ الإفراط Exaggeration.

وفي هذا البحث سنعمد إلى دراسة هذه المخلوقات بناء على هذا التقسيم.

أولًا: التركيب/ المزج:

إن التركيب Composition هو الأساس الأول الذي يتشكل وفقه الغروتسك، إذ "تعرِّف قواميس الفن في القرن العشرين الغروتسك بأنه الشكل الذي يعتمد تركيب عناصر بشرية وحيوانية ونباتية"[1]. إن التركيب في الغروتسك يقصد به تركيب عناصر تنتمي إلى حقول مختلفة على جسد أو تكوين واحد، وقد يكون التركيب من حقلين، كالإنسان وحيوان واحد، أو الإنسان وحيوانين، أو أكثر، أو مجموعة حيوانات، وفي حالات يتم الدمج مع حقلي النبات والجماد. أما المزج فهو التأليف أيضًا بين عناصر تنتمي إلى حقول مختلفة غير أن الحدود بين هذه العناصر تغدو غير واضحة نتيجة تداخلها.

نعثر على نموذج نمطي للتركيب في إحدى حكايات سندباد الواردة في (ألف ليلة وليلة)، حين يغرق المركب الذي يقله، فتلقي به الأمواج إلى جزيرة مجهولة، غنية الشجر والثمار، ثم يقول: "فرأيت ساقية على عين ماء جارية وعند تلك الساقية شيخ جالس مليح، وذلك الشيخ مؤتزر بإزار من ورق الأشجار فقلت في نفسي لعل هذا الشيخ طلع إلى هذه الجزيرة وهو من الغرقى الذين كسر بهم المركب ثم دنوت منه وسلمت عليه فرد الشيخ عليَّ السلام بالإشارة ولم يتكلم، فقلت له يا شيخ ما

[1]. الخنجي، نورة محمد فرج، "القبح في الرواية العربية المعاصرة"، أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، 2009، 11.

سبب جلوسك في هذا المكان فحرك رأسه وتأسف وأشار لي بيده يعني احملني على رقبتك وانقلني من هذا المكان إلى جانب الساقية الثانية فقلت في نفسي أعمل مع هذا معروفًا وأنقله إلى المكان الذي يريده لعل ثوابه يحصل لي، فتقدمت إليه وحملته على أكتافي وجئت إلى المكان الذي أشار لي إليه، وقلت له انزل على مهلك فلم ينزل عن أكتافي وقد لف رجليه على رقبتي فنظرت إلى رجليه فرأيتهما مثل جلد الجاموس في السواد والخشونة ففزعت منه وأردت أن أرميه من فوق أكتافي فقرط على رقبتي برجليه وخنقني بهما حتى اسودت الدنيا في وجهي غبت عن وجودي ووقعت على الأرض مغشيًا علي مثل الميت فرفع ساقيه وضربني على ظهري وعلى أكتافي فحصل لي ألم شديد فنهضت قائمًا به وهو راكب فوق أكتافي وقد تعبت منه"[1].

في هذه الحكاية نجد أن السندباد يلتقي بهذا الشيخ/ الجاموس في جزيرة غير معروفة، والجزر المجهولة ثيمة متكررة إذ تعتبر جغرافيا أساسية لهذه المخلوقات، وغالبًا ما يصل إليها السارد وهو في حالة ضياع فيزيائي كما حصل مع السندباد. هنا يتكون هذا المخلوق من حقلين (الإنساني والحيواني)، وقد تم تحديد الحيوان بالجاموس، ونلاحظ أن السندباد لم يتعرف على حقيقته الأخرى إلا من خلال ساقيه، بل ذكر في الحكاية أنه لم يصل إلى حقيقة كون هذا المخلوق إنسيًا أو جنيًا، فالوجه يشير إلى البشر، فيما الساق تنتمي إلى الجاموس، وغالبًا ما يستخدم الكشف عن أحد الأعضاء بخلاف الوجه للإعلان عن الطبيعة الجنية للمخلوق.

إن النص يشير إلى تحول المخلوق، فالسندباد حين رآه في البداية لم ير فيه اختلافًا مريبًا، إذ كان على صورة إنسية، لكنه لاحقًا كشف عن أصله، وهذا الكشف متعمد وليس كشفًا عفويًا، إنه إخبار عن السلطة والتفوق المرتفقان مع هذا الأصل، فالمتحول عنه هو الجني، والمتحول إليه هو البشري، لكنه تحول وقتي ولغايات محددة.

تنتمي هذه الصورة إلى التصور الشعبي عن الجن في كونهم يتمثلون على هيئات حيوانية. وهذا المخلوق لا يتحاور مع سندباد إلا بالإشارة، كما لا تخبرنا الحكاية إن كان ذلك اختبارًا منه أو بسبب افتقاره إلى ملكة الكلام حسب عبد الفتاح كيليطو: "هذا المخلوق يدخل في حوار مع السندباد ولكن بالإشارة فقط. إن رجليه الجاموسيتين وعدم قدرته على النطق تقربانه من الحيوان. فهو، كالعملاق والأقزام، نصف إنسان ونصف حيوان. التواصل في هذه الحالة ينعدم أو لا يخدم إلا طرفًا واحدًا، وحين يصير التبادل مستحيلًا لا يبقى إلا العنف ولغة القوة."[2].

[1]. *ألف ليلة وليلة*، المكتبة الثقافية، بيروت، 1979، 180.

[2]. كيليطو، عبد الفتاح، *الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي*، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006، 119.

أما شاكر عبد الحميد فيفسر ظهور هذا الشيخ/ الجاموس في حكاية سندباد بالتفصيل: "لقد أراد السندباد أن يفعل خيرًا فانقلب عليه شرًا، ولم يكن أمامه من وسيلة سوى أن يحتال على ذلك الشيطان المريد وأن يسكره، ثم أن يتخلص منه ويقتله –كما ورد في القصة – فمن هذا الشيطان؟

1- قد يقول أحد التفسيرات إن الشيطان هنا دلالة ورمز لكل شيء أو إنسان، كام مألوفًا بالنسبة إلينا، لكنه يصبح بعد ذلك غير مألوف، عندما نقترب منه أكثر فأكثر، عندما نطيعه، ونستجيب لرغباته، عندما نعتقد أننا نساعده، فإذا بنا نصبح نحن المحتاجين إلى المساعدة، عندما يتحول ما نقوم به من أجل مصلحتنا أو مصلحة الآخرين ضدنا، عندما يصبح الخير شرًا، والمساعدة استعانة، والقوي ضعيفًا –كما حدث بالنسبة إلى السندباد – والضعيف قويًا –كما حدث للشيطان – وتعد آلية التحول إلى النقيض هذه من المحاور الأساسية في موضوع الغرابة.

2- قد يقول تفسير آخر: ليس المألوف قد أصبح غير مألوف، بل إن المألوف قد عاد من غيابه، قد عاد من كبته، إنه مألوف بالنسبة إلينا، موجود في لاشعورنا، في مخاوفنا ومتاعبنا وهواجسنا، وإنه في عزلتنا ووحشتنا وتعبنا ووحدتنا –كما كان شأن السندباد في تلك الجزيرة – قد تخرج هذه المحتويات اللاشعورية وتهيمن علينا، نجسدها في شكل أشباح وشياطين، وقد نبالغ في تجسيدنا لآخرين نكرههم ونعاني منهم في شكل أشباح وشياطين، نخلع عليهم مخاوفنا وعزلتنا وهشاشة ذواتنا، نرى أننا قد نستطيع مساعدتهم، في حين أننا نريد أن نساعد أنفسنا، نجسدهم في أشكال مخيفة، أو في كائنات تبدو كأنها تحتاج إلى مساعدتنا، أو ربما نجسدها في حكايات كما فعل السندباد، وكما يفعل الأدباء والفنانون، وإنه من خلال هذه الحكاية ومن خلال الخيال واجه السندباد شيطان عزلته، حاول أن يتجاوز شعوره بالغربة والغرابة في ذلك العالم الغريب، وقد تكون الخمر التي شربها السندباد هنا، خمرًا حقيقية، وقد تكون هي خمر الخيال، خمر الحكي، خمر الإبداع، أو خمر الحيلة والاحتيال على الحياة وعلى مواقفها القاسية، إنها الخمر الفعلية أو الرمزية التي تخلص السندباد من خلالها وتحرر من ذلك الشيطان المريد، فمن خلال الخيال والإبداع نواجه الخوف، من خلالهما قد نتخلص من شعورنا بالغرابة أو الغربة.

3- قد يقول تفسير ثالث، طرحه قبلنا الناقد المعروف الدكتور جابر عصفور، فقال إن الشيطان هنا هو سلطة التراث، أو سلطة ما هو قديم، والتي يسيطر من خلالها على الحاضر، على كل ما هو جديد، وإنه ليس هناك من خلاص من تلك الهيمنة العنيفة لذلك الجانب المخيف المعتم القاتم من التراث إلا بمزيد من إلقاء الضوء على جوانبه المضيئة المشرقة

وقد كانت الخمر التي سقاها السندباد للشيطان هي ذلك الضوء، ضوء الوعي والاستنارة والمعرفة والتنقية والمواجهة لكل ما هو غامض أو مخيف أو غريب"[1].

نعثر كذلك على نموذج سردي تركيبي آخر في حكاية ثانية من حكايات سندباد، وفيها يحضر المخلوق وتغيب اللغة الشفاهية: "وجلسنا في حضير ذلك القصر قليلًا ثم بعد لك نمنا ولم نزل نائمين من صحوة النهار إلى غروب الشمس، وإذا بالأرض قد ارتجت من تحتنا وسمعنا دويًا من الجو، وقد نزل علينا من أعلى القصر شخص عظيم الخلقة في صفة إنسان، وهو أسود اللون طويل القامة كأنه نخلة عظيمة، وله عينان كأنهما شعلتان من نار، وله أنياب مثل أنياب الخنازير وله فم عظيم الخلقة مثل البئر، وله مشافر مثل مشافر الجمل مرخية على صدره، وله أذنان مثل الحرامين مرخيتان على أكتافه، وأظافر يديه مثل مخالب السبع.[2]

إن هذا المخلوق يصفه سندباد على أنه مشابه للبشر، لكنه من جهة أخرى يستعير صفات جسدية حيوانية: أنياب الخنازير، ومشافر الجمل، ومخالب السبع. ومن هنا، يجري إخراج هذا الكائن من صفة البشرية، وينعدم الكلام بينه وبين الآدميين، و"يصبح السرد عديم الفائدة لأنه قبل كل شيء فعل بشري لا يتم إلا بين البشر. لا شيء يرجى من آكلي لحم الإنسان ولا من الأقزام الذين، بالإضافة إلى توحشهم، "لا يفهم أحد لهم كلاما ولا خبرا". ولا شيء يرجى من العجماوات ولا من المخلوقات المتشبهة بها كالعملاق الذي يظهر في الحكاية الثالثة والذي هو "في صفة إنسان" ولكن "له أنياب مثل أنياب الخنازير وله فم عظيم الخلقة مثل فم البئر وله مشافر مثل الجمل". هذا المخلوق الذي تغلب عليه الأوصاف الحيوانية لا يتكلم وليس بإمكان من يقع في قبضته أن يجري مع أي حوار"[3].

إن المكان الذي بدا وادعًا في حكاية سندباد، تتشكل عجائبيته من وجود هذا المخلوق، "فكأن الحيز هو الذي يجسد عبقرية الإبداع. فعبقرية التشكيل الأدبي في رائعة ألف ليلة وليلة تمثل، إذن، في تعاملها مع الأحياز، وقدرتها العجيبة، وذلك بفضل عبقرية الخيال الشعبي، على إنشاء هذه الأحياز، وإعطائها أسماء عجائبية تمنحها (الشرعية) الجغرافية (الوهمية على كل حال). فحيزها يتشكل من سلسلة هائلة من الأحياز السحرية والعجائبية حيث إن "عالم العبقريات يشغل فيها مكانة مركزية: ببلدانه الخرافية؛ ببلدانه التي البداعة فيها تنصرف إلى الطبيعة، وإلى إنتاج الفن في الوقت ذاته"[4].

[1]. عبد الحميد، شاكر، *الغرابة: المفهوم وتجلياته في الأدب*، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2012، 15- 16.

[2]. *ألف ليلة وليلة*، 157.

[3]. *الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي*، 119.

[4]. مرتاض، عبد الملك، *ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي لحكاية حمال بغداد)*، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، 113.

إن الجزيرتين المشار إليها في الحكايتين السالفتين هما جزيرتان مجهولتان، لم يتم تسميتهما، وقد جاءتا في حكايات/ نصوص تخييلية، بخلاف النصوص الجغرافية التالية، إذ نعثر على نموذج تركيبي آخر وهو تركيب رأس الكلب على جسد الإنسان، إذ يذكر القزويني عن جزيرة سكسار النص السردي التالي: "جزيرة بعيدة عن العمران في بحر الجنوب، حكى يعقوب بن إسحاق السراج قال: رأيت رجلًا في وجهه خموش، فسألته عن ذلك، فقال: خرجنا في مركب فألقتنا الريح إلى جزيرة لم نقدر أن نبرح عنها، فأتانا قوم وجوههم وجوه الكلاب وسائر بدنهم كبدن الناس، فسبق إلينا واحد ووقف الآخرون فساقنا إلى منازلهم، فإذا فيها جماجم الناس وأسوقهم وأذرعهم، فأدخلنا بيتًا فإذا فيه إنسان أصابه مثل ما أصابنا، فجعلوا يأتوننا بالفواكه والمأكول، فقال لنا الرجل: إنما يطعمونكم لتسمنوا فمن سمن أكلوه، قال: فكنت أقصر في الأكل حتى لا أسمن، فأكلوا الكل وتركوني وذاك الرجل لأني كنت نحيفًا والرجل كان عليلًا، فقالي لي الرجل: قد حضر لهم عيد يخرجون إليه بأجمعهم ويمكثون ثلاثًا، فإن اردت النجاة فانج بنفسك! وأما أنا فقد ذهبت رجلاي لا يمكنني الذهاب. واعلم أنهم أسرع شيء طلبًا وأشد اشتياقًا وأعرف بالأثر، إلا من دخل تحت شجرة كذا فإنهم لا يطلبونه ولا يقدرون عليه. قال: فخرجت أسير ليلًا وأكمل النهار تحت الشجرة، فلما كان اليوم الثالث رجعوا، وكانوا يقصون أثري، فدخلت تحت الشجرة فانقطعوا عني ورجعوا فأمنت. حكى الرجل المخموش وقال: بينما أنا أسير في تلك الجزيرة إذ رفعت لي أشجار كثيرة فانتهيت إليها، فإذا بها من كل الفواكه، وتحتها رجال كأحسن ما يكون صورة، فقعدت عندهم لا أفهم كلامهم ولا يفهمون كلامي، فبينا أنا جالس معهم إذ وضع أحدم يده على عاتقي، فإذا هو على رقبتي ولوى رجليه علي وأنهضني، فجعلت أعالجه لأطرحه فخمشني في وجهي، فجعلت أدور به على الأشجار وهو يقطف ثمرها يأكل ويرمي إلى أصحابه وهم يضحكون، فينا أنا أسير به في وسط الأشجار إذ أصاب عينيه عيدان الأشجار فعمي، فعمدت إلى شيء من العنب وأتيت نقرة في صخرة عصرته فيها. ثم أشرت إليه أن أكرع فكرع منها، فتحللت رجلاه فرميت به. فأثر الخموش من ذلك في وجهي"[1].

هنا تم تحديد جزيرة سكسار بالاسم، بينما نجد في خبر ذي القرنين هذه الصورة نفسها عن البشر ذوي رؤوس الكلاب، لكن في جزيرة مجهولة أيضًا: "وحكي أن ذا القرنين رأى في بعض الجزائر أمة رؤوسهم رؤوس الكلاب، وأنيابهم خارجة من فيهم. خرجوا إلى مراكب ذي القرنين وحاربوها، فرأى نورًا ساطعًا فإذا هو قصر مبني من البلور الصافي، وهؤلاء يخرجون منه، فأراد النزول عليه فمنعه بهرام الفيلسوف الهندي، وعرّفه أن من دخل هذا القصر يقع عليه النوم والغشي، ولا يستطيع الخروج فيظفر به هؤلاء، والبحر لا تحصى عجائبه"[2].

[1]. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، *آثار البلاد وأخبار العباد*، دار صادر، بيروت، 1960، 31-32.
[2]. المرجع نفسه، 84.

ويتكرر ظهور البشر ذوي رؤوس الكلاب في الجزر المجهولة: "ومنهم أمة في بعض جزر الجزائر، وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كبدن الناس يتقوتون بثمار أشجار تلك الجزيرة فإن وجدوا شيئًا من الحيوانات أكلوه. ومنها أمة في هذه الجزيرة على صورة الناس كأحسن ما يكون ولا عظم في أرجلهم فيزحفون زحفًا فإذا وجدوا إنسانًا ماشيًا قفزوا على رقبته ولوى من على الرقبة رجليه على ذلك الماشي فإذا عالجه طرحه وخمشه في وجهه وسخره كما سخر أحدنا دابته"[1]. ويورد القزويني خبرًا سرديًا آخر عن ذي القرنين: "وفي خبر ذي القرنين أن مراكبه وقعت إلى جزيرة بيضاء نقية ذات أنهار وأشجار وأثمار، وفيها خلق على خلق الإنسان في الانتصاب، رؤوسهم مثل رؤوس السباع والكلاب"[2].

هذا الجمع التركيبي بين البشر والسباع نجده في نماذج قدمتها نصوص أخرى كذلك، وإن لم تكن في جزر، وإنما يتم تحديد هذه الأماكن جغرافيًا بموضعتها إلى مكان آخر معروف: "وقيل إن في شرقي القلزم مما يلي في البحر أمة متولدة من صنف من السباع وبني آدم، وجوهها عراض كثيرة الشعر مثل وجوه السباع، وعيونها مدورة بصاصة، وأنيابها بارزة طوال، وآذانها طوال، وأبدانها كأبدان الناس إلا أن لها أظفارًا كبارًا، معقفة محدودة، وليس وراءهم غيرهم. وطعامهم دواب البحر"[3].

إن استبدال الرأس البشري برأس حيواني في هذه الكائنات ليس نزعًا للعقل عنها وحسب، بل هو إمعان في إضفاء صفة الغرائبية عليها، فهي لا تقع ضمن دائرتي الكائنات المعروفة (البشر – الحيوان)، وإنما تقع في المنزلتين، وبذا تسبب إرباكًا لمن يراها، فيستعصي عليه فهم طبيعتها وبالتالي كيفية التعاطي معها، فترتفع درجة خطورة المبهم، ولذا نجد الغالب هو استبدال رؤوس الكلاب والسباع بالرأس البشري، وإن كان ثمة استثناء، ففي نص يورده القزويني، يظهر قوم لهم رؤوس خيل في نص يورده القزويني: "ومنها أمة طوال القدود زرق العيون ذوات أجنحة خفاف النهضة رؤوسهم كرؤوس الخيل وأبدانهم كأبدان الناس. ومنها أمة لها رأسان وثماني أرجل، رأس وأربع نحو الأرض ورأس وأربع نحو الهواء"[4]. ونجد كذلك قلبًا لتقنية الرأس المعتادة، إذ يكون الرأس بشريًا بينما الجسد حيواني: "ومنها أمة رؤوسها رؤوس الناس وأبدانها أبدان الحيات، ومنها أمة لها وجوه كوجه الإنسان وظهورهم كظهر السلحفاة وعلى رؤوسهم قرون طوال"[5].

[1]. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، *عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات*، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2000، 382.

[2]. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، *أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران*، تح: عبد الله الصاوي، دار الأندلس، بيروت، 1996، 46.

[3]. المرجع نفسه، 16.

[4]. المرجع السابق، 382.

[5]. *عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات*، 383-384.

ويورد القزويني أيضًا نصًا مطولًا عن مخلوق له وجه إنسان: "ومنها ما ذكره أبو سعيد الشيراجي عن بعض الكتاب أنه قال: دخلت على يحيى بن أكثم القاضي وإلى جانبه قمطر فيه طائر على صورة الزاغ برأس كرأس الإنسان وعلى صدره وظهره سلعتان فقلت له: ما هذا أصلحك الله؟ فقال لي: سله عنه فقلت: ما أنت؟ فانتهض وأنشد بلسان فصيح وجعل يقول:

أنا الزاغ أبـــو عجوه أنا ابن الليــث واللبــوه
أحــب الراح والريــحا ن والنشـــــوة والقهــوة
ولي أشيـــاء تســـتظ رف يـوم العرس والدعوه
فمنها ســلعة في الظهـ ر لا تستـرها الفـــروه
وأما الســلعة الأخرى فلو كانت لــها عـــروه
لما شــك جميــع النا س فيـــــها أنها ركــوه

ثم صاح ومد صوته زاغ زاغ وانطرح في القمطر فقلت: أيها القاضي هو عاشق؟ قال: هذا ما ترى لا علم لي به، حمل إلى أمير المؤمنين مع كتاب مختوم فيه ذكر حاله"[1].

كما أن نموذجًا آخر يظهر عندنا، وهو متعدد الرؤوس، في جزيرة ملكان: "وجزيرة ملكان، وملكان دابة عظيمة بحرية، قد استوطنت تلك الجزيرة، ولهذه الدابة رؤوس كثيرة، ووجوه مختلفة، وأنياب معقفة، وليس لها طعام إلا ما تصيده من دواب البحر. وقيل أنها مركب لبعض ملوك الجن من أهل البحر، لأن لها جناحين إذا أقامتهما، وجمعت بين رأسيهما صارا كأنهما رف يلتبس بظل من الشمس. وذكرتها الأوائل، وزعموا أنها بقدر الجبل، وجزيرة ملكان فيها أمة مثل خلق الإنسان إلا أن رؤوسهم مثل رؤوس الدواب يغوصون في البحر ويخرجون بما قدروا على إخراجه من دواب البحر فيأكلونه"[2].

ونجد تركيبًا لكائنات تم تأليفها من الإنسان والحيوان والطير تظهر في جزيرة الرود: "ومنها جزيرة الرود وهم خلق لهم أجنحة وشعور وخراطيم ضيقة، يمشون على رجلين وعلى أربعة، ويطيرون ويعودون إلى الجزيرة، وقيل إنهم من الشياطين الأول"[3]، ويكرر القزويني صورة قريبة منها في نصوص متعددة، إذ يورد عن جزيرة الزنج: "ومنها أمة بجزيرة الزنج على صورة الإنسان يتكلمون بكلام لا يفهم ويأكلون ويشربون كالإنسان، ولهم أجنحة يطيرون بها، وهم بيض وسود وخضر"[4]، كما يقول القزويني

[1]. المرجع نفسه، 385.
[2]. *أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران*، 31.
[3]. المرجع نفسه، 33.
[4]. *عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات*، 382.

عن جزيرة غير محددة: "ومنها أمة في بعض الجزائر لها أجنحة وخراطيم دقيقة وشعور، يمشي على رجلين وعلى أربعة ويطير أيضًا قيل إنهم صنف من الجن"[1].

ويذكر الأبشيهي عن المسعودي أنه اختص هذه المخلوقات بتحديد وجودها قبل ظهور آدم عليه السلام، إذ يقول: "ذكر المسعودي في كتابه عن بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض قبل آدم ثمانيًا وعشرين أمة على خلق مختلفة، وهي أنواع، منها ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة، ومنها ما له أبدان كالأسود، ورؤوس كالطير، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوي ومنها ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلف وأرجل كثيرة، ومنها ما يشبه الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرانيق، ومنها ما وجهه كالآدمي وظهره كالسلحفاة وفي رأسه قرن، وكلامهم مثل عواء الكلاب، ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالبقر، ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر، وآذان طوال"[2].

كما تأخذ هذه التوليفات طرقًا أخرى في الجمع بين نوعين مختلفين من الكائنات، إذ يضع الأبشيهي عنوانًا في كتابه (الحيوانات المركبة التي تتولد من حيوانين مختلفي النوع)، وقال فيه: "ومنها المتولد من الإنسان والدب، حدثني من رآه أن جميع أعضائه كأعضاء الإنسان إلا أنه يكون عليه شعر كما يكون على الدب ويكون ناطقًا"[3]. وقد فسر المدونون هذا النوع من التركيب، ففي القسم الذي سماه الأبشيهي (الحيوانات عجيبة الصور)، قال: "زعم الأطباء أنه إذا تولد من الحيوانات شكل غريب يكون ذلك مقتضى مزاج غريب لا يحدث إلا نادرًا"[4].

كما أننا نعثر في الحديث عن الغول عند المسعودي تفسيرًا لظهور هذا النوع من المخلوقات المركبة: "العرب يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات، ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور فيخاطبونها، وربما ضيفوها، وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم، ...، ويزعمون أن رجليها رجلا عنز، وكانوا إذا اعترضهم الغول في الفيافي يرتجلون ... وذلك أنها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها، وتتيههم. وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القص فإذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال. وقد ذكر جماعة من الصحابة ذلك: منهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه! أنه شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشام، وأن الغول كانت تتغول له، وأنها ضربها بسيفه، وذلك قبل ظهور الإسلام، وهذا مشهور عندهم في أخبارهم. وقد حكي عن بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان (مشوه) لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفردًا في نفسه

[1]. المرجع نفسه، 382.

[2]. الأبشيهي، *شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف*، تحق: محمد خير طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت، 2008، 526.

[3]. المرجع نفسه، 384.

[4]. المرجع نفسه، 384-385.

وهيئته توحش من مسكنه، فطلب القفار، وهو يناسب الإنسان والحيوان البهيمي في الشكل، وقد ذهبت طائفة من الهند إلى أن ذلك إنما يظهر من فعل ما كان غائبًا من الكواكب عند طلوعها، مثل الكوكب المعروف بكلب الجبار، وهي: الشعرى العبور، وأن ذلك يحدث داء في الكلاب، وسهيل في الحمل والذئب في الدب وحامل رأس الغول يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاص تظهر في الصحارى، وغيرها من العامر والخرائب، فتسميه عوام الناس غولًا، وهي ثمانية وأربعون كوكبًا، وقد ذكرها بطليموس وغيره ممن تقدم وتأخر... وكانت العرب قبل الإسلام تزعم أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل، واختلال السابلة."[1]

يمكن إدارج الغول في حالة الانمساخ، وقد تحدث عنها الجاحظ باستنكار، ولكن ضمن الحيوانات التي تأخذ صفة دونية في الثقافة العربية، فقال: وكيف حدثوا عن ابن عباس في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجرّى، أنهن كلهن مسخ (وكيف خصت هذه بالمسخ؟) وهي يحل لنا أن نصدق بهذا الحديث عن ابن عباس؟ وكيف صارت الظباء ماشية الجن؟ وكيف صارت الغيلان تغير كل شيء إلا حوافرها؟ ولم ماتت من ضربة وعاشت من ضربتين؟ ولم صارت الأرانب والكلاب والنعام مراكب الغيلان؟"[2].

إن "المسخ هو تحول للكائنات من جنسها المخلوقة عليه إلى جنس آخر بعيدة عنه، مع احتفاظها بعد التحول ببعض السمات من جنسها الأول. وهو في كل الأحوال يدخل في زاوية الغلو"[3]، ولعل المسخ/ العقاب أهم صور المسخ التي اعتمدها السارد الشعبي في هذه التنويعات، بل هو الصورة الأولى للتحول من جنس أعلى إلى جنس أقل، وبهيئة مذمومة ومريعة، ولذلك فهو المعنى الذي لم تشترطه كلمة (ميتامورفوزس)، إذ نجد في كتاب (مسخ الكائنات: ميتامورفوزس) ضمن كلام جوبيتر عن ليكاوون: "فإذا هو إمعانًا في فجوره وجبروته يقطع رقبة أحدهم بسيفه البتار، ويلقي بجسده وهو لا يزال ينبض بالحياة في النار، يجعل منه شواء. وأعدت المائدة وصفّت الصحاف وجلس يلتهم ما فيها بنهم وشره. فنقمت عليه فعله وأرسلت على بيته شواظًا من نار أحرق البيت بما فيه من تماثيل لأسرته نصبها آلهة زورًا وبهتانًا. غير أن ليكاوون استطاع أن ينجو، ففر هاربًا إلى الريف وهو ثائر غاضب. وهناك وجد نفسه أخرس لا يستطيع تحريك لسانه بكلمة، وألفى ما عليه من ثياب قد تحولت إلى شعر شائك، وإذا ذراعاه قد تحولتا إلى ساقين، وإذا هو قد مسخ ذئبًا، من أشرس ما تكون الذئاب، فعدا فاغر الفم إلى حيث قطعان الماشية ينهشها نهشًا ويقتلها تقتيلًا. وكان على الرغم من صورته تلك التي تحول إليها لا يزال يحمل شيئًا من ملامحه

[1]. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، مراجعة: كمال حسن مرعي، المكتبة العربية، بيروت، 2005، ج2، 120- 121.
[2]. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، *الحيوان*، تحق: عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة، 1965، ج1، 309.
[3]. الشاهد، نبيل حمدي، *العجائبي في السرد العربي القديم: مائة ليلة وليلة والحكايات العجيبة والأخبار الغريبة أنموذجًا*، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمّان، 2012، 365.

الأولى، فلقد بقي له شعره الأشيب كما بقي له وجهه الجهم البغيض بشراسته وقسوته، كذا بقي له بريق عينيه وما فيهما من نظرات مرهوبة"[1].

كما نجد عنده عن أسكالافوس الذي "شاهد بروسيربينا تتناول حبات الرمان، فحال بوشايته القاسية بينها وبين العودة إلى الأرض. فتملك الغضب ملكة إريبوس (العالم السفلي) وأطلقت زفرة يائسة ثم مسخت الواشي طائرًا مشؤومًا، إذ نثرت على رأسه قطرات من ماء نهر فليجيثون الذي يجري في العالم السفلي وأنبتت له منقارًا وريشًا وعينين واسعتين، ففقد آدمية شكله واكتسى بجناحين داكنين، وعظم حجم رأسه، وطالت أظافره وتحولت إلى مخالب معقوفة، وبدأ يجهد كي يحرك ذراعيه المتراخيتين اللتين اكتستا بالريش وتحولتا جناحين. لقد صار طيرًا تثير رؤيته النفور وتنذر بوقوع الكوارث هو طير البوم الكسول نذير الشؤم عند البشر"[2].

إن الانمساخ هنا إلى ذئب وإلى بوم لا يعني تحولًا كاملًا، بل إن المخلوق في صورته الثانية لا بد أن يضم بعض صفاته الأولى المذمومة والتي تخبر عن سبب لعنته.

التشويه:

نعني بالتشويه هنا هو إزالة أحد أعضاء الجسد أو بعضها، أو إعادة ترتيبها على غير النحو المألوف. ولعل المثال الأبرز على المخلوق الذي جرى تشويه هيئته في التراث العربي هو النسناس، وله صورتان مختلفتان، فحينًا تطلق تسمية النسناس على مخلوق هو نصف إنسان، أو على المخلوق الذي لا رأس له، ووجهه في صدره.

يذكر ياقوت الحموي في نص سردي عن وبار: قال أهل السير: هي مسماة بوبار بن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام، انتقل إليها وقت تبلبلت الألسن فابتنى بها منزلًا وأقام به. وهي ما بين الشحر إلى صنعاء أرض واسعة زهاء ثلثمائة فرسخ في مثلها: وقال الليث: وبار أرض كانت من محال عاد بين رمال يبرين واليمن فلما هلكت عاد أورث الله ديارهم الجن فلم يبق بها احد من الناس، وقال محمد بن إسحاق: وبار أرض يسكنها النسناس... وكانت أرض وبار أكثر الأرضين خيرًا وأخصبها ضياعًا وأكثرها مياهًا وشجرًا وثمرًا فكثرت بها القبائل حتى شحنت بها أرضهم وعظمت أموالهم فأشروا وبطروا وطغوا وكانوا قومًا جبابرة ذوي أجسام فلم يعرفوا حق الله تعالى فبدل الله خلقهم وجعلهم نسناسًا للرجل والمرأة منهم نصف رأس ونصف وجه وعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة فحرجوا على وجوههم يهيمون في تلك الغياض إلى شاطئ البحر يرعون

[1]. أوفيد، *مسخ الكائنات: ميتامورفوزس*، تر: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، 69-70.
[2]. المرجع السابق، 223.

كما ترعى البهائم وصار في أرضهم كل نملة كالكلب العظيم تستلب الواحدة منها الفارس من على فرسه فتمزقه، ويقال إن ذا القرنين وجنوده دخلوا إلى هذه الأرض فاختلس النمل جماعة من أصحابه...وعن محمد بن إسحاق أن النسناس خلق في اليمن لأحدهم يد واحدة ورجل واحدة وكذلك العين وسائر ما في الجسد وهو يقفز برجله قفزًا شديدًا ويعدو عدوًا منكرًا، ومن أحاديث أهل اليمن أن قومًا خرجوا لاقتناص النسناس فرأوا ثلاثة منهم فأدركوا واحدًا فأخذوه فذبحوه وتوارى اثنان في الشجر لم يقفوا لهم على خبر، فقال الذي ذبحه: والله إن هذا لسمين أحمر الدم، فقال أحد المستترين في الشجر: إنه قد أكل حبَّ الضرو وهو البطم وسمن، فلما سمعوا صوته تبادروا إليه وأخذوه فقال الذي ذبح الأول: والله ما أحسن الصمت هذا لو لم يتكلم ما عرفنا مكانه، فقال الثالث: فها أنا صامت لم أتكلم، فلما سمعوا صوته أخذوه وذبحوه وأكلوا لحومهم، وقال دغفل: أخبرني بعذ العرب أنه كان في رفقة يسير في رمل عالج، قال: فأضللنا الطريق ووقفنا إلى غيظة عظيمة على شاطئ البحر فإذا نحن بشيخ طويل له نصف رأس وعين واحدة وكذلك جميع أعضائه، فلما نظر إلينا مر يركض كالفرس الجواد... وروى الحسام بن قدامة عن أبيه عن جده قال: كان لي أخ فقل ما بيده وأنفض حتى لم يبق له شيء فكان لنا بنو عم بالشحر فخرج إليهم يلتمس برهم فأحسنوا قراه وأكثروا بره وقالوا له يومًا: لو خرجت معنا إلى متصيد لنا لتفرجت، قال: ذاك إليكم، وخرج معهم فلما اصحروا ساروا إلى غيضة عظيمة فأوقفوه على موضع منها ودخلوا يطلبون الصيد، قال: فبينما أنا واقف إذ خرج من الغيضة شخص في صورة الإنسان له يد واحدة ورجل واحدة ونصف لحية وفرد عين وهو يقول: الغوث الغوث الطريق الطريق عافاك الله! ففزعت منه ووليت هاربًا ولم أدر أنه الصيد الذي يذكرونه، قال: فلما جازني سمعته يقول وهو يعدو:

غدا القنيص فابتـكر بأكلب وقت السـحر
لك النجـا وقت الذكر وورز ولا وزر
أين من المـوت المفر؟ حذرت لو يغني الحذر
هيهات لن يخطي القدر من القضـا أين المفر؟

فلما مضى إذا أنا بأصحابي قد جاؤزا فقالوا: ما فعل الصيد الذي احتشناه إليك؟ فقلت لهم: أما الصيد فلم أره، ووصفت لهم صفة الذي مر بي، فضحكوا وقالوا: ذهبت بصيدنا! فقلت: يا سبحان الله! أتأكلون الناس؟ هذا إنسان ينطق

ويقول الشعر! فقالوا: وهل أطعمناك منذ جئتنا إلا من لحمه قديدًا وشواء؟ فقلت: ويحكم أيحل هذا؟ قالوا: نعم إن له كرشًا وهو يجتر فلهذا يحل لنا، قلت: ولهذه الأخبار أشبه ونظائر في أخبارهم والله أعلم بحق ذلك من باطله"[1].

في هذا النص، يجري الاختلاف على بشرية النسناس، وحول حرمة أكل لحمه من حلالها، والملاحظ أن الحكم ببشريته لا ينفي استحلال أكله، لكن الشعر من جهة أخرى هو ما يحكم بكونه إنسانًا. ويذكر القزويني النسناس ضمن نفس الهيئة التي ذكرها ياقوت الحموي: "ومنها أمة يقال لها النسناس لأحدهم نصف رأس ونصف بدن ويد ورجل واحدة كأنه إنسان قد نصفين يقفز قفزًا، وأنه يوجد في غياض أرض اليمن وهو ناطق، والله الموفق"[2]. نجد هنا أن النصين يلتقيان لا في شكل النسناس وحسب، وإنما في نسبته إلى أرض اليمن أيضًا. لكن القزويني يذكر الصورة نفسها للنسناس من دون تسميته، لكنه يبعد بهذا المخلوق إلى بحر الهند في جزيرة جابة: "جزيرة في بحر الهند، فيها قوم شقر وجوههم على صدورهم، وبها جبل عليه نار عظيمة بالليل ودخان عظيم بالنهار"[3].

كما يحدد القزويني ظهورًا آخر لهذه المخلوقات التي بلا رأس ولكن دون تسميتها بالنسناس، وقال أنها في جزر تابعة للصين، وأن منهم كان رسول: القزويني عجائب ومنها أمة في بعض جزائر الصين لا رأس لأبدانهم وأفواههم وعيونهم على صدورهم، وسمعت أن من واحدًا من هذه الأمة جاء رسولًا إلى عظيم التتار"[4].

بينما يقول الأبشيهي عن ابي حامد الغرناطي في تحفة الألباب أن هؤلاء المخلوقات موطنهم هو السودان: "قال صاحب تحفة الألباب: إن في بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم، وقد ذكرهم الشعبي في كتاب سير الملوك، ... وتلك الأمة التي لا رؤوس لهم، أعينهم في مناكبهم، وأفواههم في صدورهم، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم"[5].

أما كتاب البدء والتاريخ فيقول بتوافقهم زمانيًا في الظهور مع أبرهة: "ثم ملك بعده أبرهة ذو الأذعار وسُمي به لأنه غزا بلاد النسناس وجاء بهم وجوههم في صدورهم فذعر الناس لذلك وكان ملكه خمسًا وعشرين سنة"[6].

---

[1]. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، *معجم البلدان*، تحق: عبد الله بن يحي السريحي، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002، ج5، 356 – 359.

[2]. *عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات*، 384.

[3]. *آثار البلاد وأخبار العباد*، 82.

[4]. المرجع نفسه، 82.

[5]. *المستطرف في كل فن مستظرف*، 529.

[6]. البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل، *البدء والتأريخ*، تح: المطهر بن طاهر المقدسي، الناشر أرنست لورو، باريس، 1903، 175.

ويورد الدميري تفسيرًا لهيئة النسناس وطبيعته من دون أن يبين مكانه: "الشق: بالكسر، قال القزويني: هو من المتشيطنة صورته صورة نصف آدمي، ويزعمون أن النسناس مركب من الشق ومن الآدمي، ويظهر للإنسان في أسفاره"[1].

لكن المسعودي حين يورد خبرًا سرديًا عن النسناس فإنه يذكره كصفة بين الإنسان والقرد من غير تشويهه بواسطة إزالة أجزاء من جسده، وهو خاضع مكانيًا للمرويات الشعبية، إذ ينسبه أهل الشرق إلى الغرب، والعكس، لكنه عاد ليحدد وجوده بحضرموت أو المهرة في اليمن: "النسناس: وقد غلب على كثير من العوام الأخبار عن معرفة النسناس وصحة وجوده في العالم كالإخبار عن وجوده في الصين وغيرها من الممالك النائية والأمصار القاصية فبعضهم يخبر عن وجوده في المشرق، وبعضهم في المغرب، فأهل المشرق يذكرون كونها بالمغرب، وأهل المغرب يذكرون أنها بالمشرق، وكذلك كل صقع من البلاد يشير سكانه إلى أن النسناس فيما بعد عنهم من البلاد ونأى من الديار. وقد رووا في ذلك خبرًا مخرجه من طريق الآحاد أن ذلك في بلاد حضرموت من أرض الشحر، وهو ما ذكره بد الله بن سعيد بن كثير بن عفير المصري، عن أبيه عن يعقوب بن الحارث بن نجيم، عن شبيب بن شيبة بن الحارث التميمي، قال: قدمت الشحر فنزلت على رأسها، فتذاكرنا النسناس، فقال: صيدوا لنا منها، فلما أن رجعت إليه مع بعض أعوانه المهريين إذ أنا بنسناس منها، فقال النسناس: أنا بالله وبك، فلت لهم: خلوه، فخلوه، فلما حضر الغداء قال: هل اصطدتم منها شيئًا؟ قالوا: نعم، ولكن خلاه ضيفك، قال: استعدوا فإنا خارجون في قنصه، فلما خرجنا إلى ذلك في السحر خرج منها واحد يعدو وله وجه كوجه الإنسان وشعرات في ذقنه، ومثل الثدي في صدره، ومثل رجلي الإنسان رجلاه، وقد ألظ به كلبان، وهو يقول:

الويل لي مما به دهـــــاني	دهري من الهمــوم والأحزان
قفا قليلًا أيها الكلبـــان	واستمعا قولي وصـــــدقاني
إنكما حينما تحاربـــاني	ألفيـتماني حـــــضرا عناني
لولا سبـــاتي ما ملكتماني	حتى تمـــــــوتا أو تفارقاني
لست بخوار ولا جبـــان	ولا بنكس رعـــــش الجنان
لكن قضـــاء الملك الرحمن	يذل بها ذا القوة والسـلطان

قال: فالتقيا به فأخذاه، ويزعمون أنهم ذبحوا منها نسناسًا، فقال قائل منها: سبحان الله ا أشد حمرة دمه! فذبحوه أيضًا، فقال نسناس آخر من شجرة: كان يأكل السماق، قال: فقالوا نسناس آخر خذوه، فأخذوه وذبحوه، القوا: لو سكت هذا لم يعلم بمكانه، فقال نسناس من شجرة أخرى: أنا صمت (قالوا: نسناس، خذوه) فأخذوه فذبحوه فقال نسناس من شجرة

[1]. الدميري، كمال الدين محمد بن موسى، *حياة الحيوان الكبرى*، تهذيب وتصنيف: أسعد الفارس، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1992، 585.

أخرى: يا لسان احفظ رأسك، فقالوا: نسناس خذوه، فاخذوه، وزعم من روى هذا الخبر أن المهرة تصطادها في بلادها وتأكلها"[1].

كما يورد المسعودي تفسيره الخاص لانتشار أخبار النسناس بين الناس بوصفه كائنًا ذا صفة غرائبية: "ووجدت أهل الشجر من بلاد حضرموت وساحلها – وهي الإحساء مدينة على الشاطئ من أرض الأحقاف، وهي أرض الرمل وغيرها مما اتصل بهذه الديار من أرض اليمن وغيرها من عمان وأرض المهرة – يستطرفون أخبار النسناس إذا ما حدثوها، ويتعجبون من وصفه، ويتوهمون أنه ببعض بقاع الأرض مما قد نأى عنهم وبعد، كسماع غيرهم من أهل البلاد بذلك عنهم، وهذا يدل على عدم كونه في العالم، وإنما ذلك من هوس العامة واختلاطها، كما وقع لهم في خبر عنقاء مغرب وهذا يدل على عدم كونه في العالم ورووا فيه حديثًا عزوه إلى ابن عباس، ونحن لم نحل وجود النسناس والعنقاء وغير ذلك مما اتصل به بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر في العالم من طريق العقل: فإذن ذلك غير ممتنع في القدرة، ولكن أحلنا ذلك لأن الخبر القاطع للعذر لم يرد بصحة وجود ذلك في العالم، وهذا باب داخل في حيز الممكن الجائز خارج عن باب الممتنع والواجب، ويحتمل هذه الأنواع من الحيوان النادر ذكرها كالنسناس والعنقاء والعراب وما اتصل بهذا المعنى أن تكون أنواعًا من الحيوان أخرجتها الطبيعة من القوة إلى الفعل ولم تحكمه ولم يتأت فيه الصنع كتأتيه في غيره من الحيوان، فبقي شاذًا فريدًا متوحشًا نادرًا في العالم طالبًا للبقاع النائية من البر مباينًا لسائر أنواع الحيوان من الناطقين وغيرهم؛ للضدية التي فيه لغيره مما قد أحكمته الطبيعة، وعدم المشاكلة والمناسبة التي بينه وبين غيره من أجناس الحيوان وأنواعه"[2].

إن صورتي النسناس، سواء كانت المخلوق النصف إنسان، أو الذي لا رأس له ووجهه في صدره، صورتان قديمتان تنتميان إلى ما قبل الإسلام، إذ ظهرتا في شخصيتي (شق وسطيح)، فابن كثير يذكر في كتابه (البداية والنهاية): "ويقال إن سطيحًا كان لا أعضاء له وإنما كان مثل السطيحة ووجهه في صدره وكان إذا غضب انتفخ وجلس"[3].

كما يذكر عنها ابن خلكان في (وفيات الأعيان): "وكان شق وسطيح من أعاجيب الدنيا، أما سطيح فكان جسدًا ملقى لا جوارح له، وكان وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق، وكان لا يقدر على الجلوس، إلا أنه إذا غضب انتفخ

[1]. *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، ج2، 172- 173.

[2]. *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، ج2، 173.

[3]. ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي، *البداية والنهاية*، تح: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، عمّان، 2004، ج2، 197.

فجلس، وكان شق نصف إنسان، ولذلك قيل له: شق، أي شق إنسان، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة، وفتح عليهما في الكهانة"[1].

إن شق وسطيح ينتميان إلى الجاهلية، لكن جرى تدوين أخبارهما في القرون الوسطى الإسلامية، وهما ينتميان إلى جرافيا معروفة: اليمن وبادية الشام، لا إلى أمكنة مجهولة، كما أنها يختلفان عن المخلوقات الغروتسكية في كونهما كاهنان، أي أنهما بشريان وليسا مخلوقان غير محددي الكينونة.

ثالثًا: المبالغة/ الإفراط:

إن المبالغة أو الإفراط في الغروتسك تعني تضخيم الكائن أو تضخيم جزء منه، أو بالعكس، أي المبالغة في تصغيره. وهنا نقصد العملقة والتقزيم بالمعنى الخارق للعادة، وليس العملقة البشرية الطبيعية المرضية او التقزم الطبيعي المصنف كحالات طبية. يمكننا أن نلاحظ ظهور هذه التقنية عند الحديث عن يأجوج ويأجوج تحديدًا في السرديات التراثية العربية، وقد نجد تناقضًا بينًا في الهيئات التي يظهرون عليها، فهم يظهرون مرة كعمالقة، بينما يظهرون عند مدون آخر كأقزام.

العملقة البشرية:

يذكر ابن فضلان يأجوج ومأجوج في كتابه عن الصقالبة: "وكان تكين حدثني أن في بلد الملك رجلًا عظيم الخلق جدًا. فلما صرت إلى البلد سألت الملك عنه، فقال: نعم، قد كان في بلدنا ومات، ولم يكن من أهل البلد ولا من الناس أيضًا. وكان من خبره أن قومًا من التجار خرجوا إلى نهر إتل وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد كما يخرجون. وهذا النهر قد مد وطغى ماؤه فلم أشعر يومًا إلا وقد وافاني جماعة من التجار، فقالوا: أيها الملك، قد قفا على الماء رجل إن كان من أمة تقرب منا، فلا مقام لنا في هذه الديار، وليس لنا غير التحويل. فركبت معهم حتى صرت إلى النهر فإذا أنا بالرجل، وإذا هو بذراعي اثنا عشر ذراعًا، وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور، وأنف أكثر من شبر، وعينان عظيمتان وأصابع تكون أكثر من شبر، فراعني أمره، وداخلني ما داخل القوم من الفزع، وأقبلنا نكلمه ولا يكلمنا، بل ينظر إلينا. فحملته إلى مكاني، وكتبت إلى أهل ويسو وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه، فكتبوا إلي يعرفونني أن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج. وهم منا على ثلاثة أشهر عراة يحول بيننا وبينهم البحر، لأنهم على شطه، وهم مثل البهائم ينكح يعضهم بعضًا، يخرج الله – عز وجل – لهم كل يوم سمكة من البحر، فيجيء الواحد منهم ومعه المدية فيحز منها قدر ما يكفيه ويكفي عياله، فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه، وكذلك

[1]. ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تح: يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج2، 195.

عياله يشتكون بطونهم. وربما مات وماتوا بأسرهم. فإذا أخذوا منها حاجته انقلبت ووقعت في البحر. فهم في كل يوم على ذلك. وبيننا وبينهم البحر من جانب والجبال محيطة بهم من جوانب أُخر. والسد قد حال بينهم وبين الباب الذي كانوا يخرجون منه، فإذا أراد الله عزوجل أن يخرجهم إلى العمارات سبب لهم فتح السد ونضب البحر وانقطع عنهم السمك. قال: فسألته عن الرجل، فقال: أقام عندي مدة فلم يكن ينظر إليه صبي إلا مات، ولا حامل إلا طرحت حملها. وكان إن تمكن من إنسان عصره بيديه حتى يقتله. فلما رأيت ذلك علقته في شجرة عالية حتى مات. إن أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليها. فقلت: "أنا والله أحب ذاك فركب معي إلى غيضة كبيرة فيها شجر عظام فتقدمني إلى شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها، فرأيت رأسه مثل القفير الكبير (خلية النحل)، وإذا اضلاعه أكبر من عراجين النخل، وكذلك عظام ساقيه وذراعيه، فتعجبت منه، وانصرفت"[1].

إن ميزة هذا النص تتأتى من كونه يندرج ضمن أدب الرحلات، روى فيه السارد ما رآه، بخلاف المدونات الأخرى التي تعتمد النقل والسماع.

كما نجد العملقة في تصوير قوم عاد قوم عاد: "وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة الألباب: دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم، الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ووزنها 1200 مثقالًا وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعًا وطول عظم عضد أحدهم 8 أذرع، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام، قال: ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد، رجلًا طويلًا، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعًا كان يسمى دنقي أو دبقي كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير، وكان من قوته بكسر بيده ساق الفرس، ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعًا تحمل على عجلة، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ في يده شجرة من البلو كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله وكان خيّرًا متواضعًا، كان إذا لقيني يسلم علي ويرحب بي ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى ركبته رحمة الله تعالى عليه. ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات في بلغار، وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، وكان أقوى أهل بلغار، قيل إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته. وروي عن وهب بن منهب في عوج بن عتق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم، إلا أنه كان لا يوصف طوله، قيل كان يخوض في الطوفان"[2].

[1]. ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، *رسالة ابن فضلان في وصف بلاد الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة*، تح: سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1960، 137 – 140.

[2]. *المستطرف في كل فن مستظرف*، 527.

إن النصين يسندان هذه العملقة إلى بشر هم الصقالبة والبلغار، أي تم إخراج العمالقة/ يأجوج ومأجوج/ قوم عاد من الحضارة العربية أو الحضارة الإسلامية.

العملقة غير البشرية:

أما العملقة غير البشرية فنجد مثالًا عليها في عملقة الثعبان، في جزيرة الشجاع، وهي جزيرة معرّفة بالاسم من دون موضعتها جغرافيًا: "جزيرة عامرة واسعة، بها قرى ومدن وجبال وأشجار، ولبلدانها أسوار عالية، ظهر فيها شجاع عظيم يتلف مواشيهم، وكان الناس منه في شدة شديدة، فجعلوا له كل يوم ثورين وظيفة ينصبونهما قريبًا من موضعه، وهو يقبل كالسحاب الأسود، وعيناه تقدان كالبرق الخاطف، والنار تخرج من فيه فيبلع الثورين ويرجع إلى مكانه، وإن لم يفعلوا ذلك قصد بلادهم وأتلف من الناس والمواشي والمال ما شاء الله، فشكا أهل هذه الجزيرة إلى الإسكندر، فأمر بإحضار ثورين وسلخهما وحشا جلدهما زفتًا وكبريتًا وكلسًا وزرنيخًا وكلاليب حديد، وجعلهما مكان الثورين على العادة، فجاء الشجاع وابتلعهما واضطرم الكلس في جوفه، وتعلقت الكلاليب بأحشائه، فرأوه ميتًا فاتحًا فاه، ففرح الناس بموته"[1].

وكذلك نجد عملقة الدود في مدينة تقع خلف سمرقند: "ومما روي من العجائب إن مدينة تسمى كسَّ بمسيرة يومين من سمرقند بينهما عقبة كبيرة مرتفعة وإن وراء كسَّ جبال الثلج يتبين ثلج كل عام حتى لو أن إنسانًا حديد البصر تهيأ له أن يعد ثلج الأيام الماضية من كل عام وبين كل ثلج عام خط أحمر مغبر من أيام المصيف لعجز عن ذلك. وبذلك الثلج دود كبار بيض كالفيل"[2].

ونجد أن الشريف الإدريسي مع أن كتابه لا يهتم بالبعد التخييلي ويخلو من النصوص السردية وينحو باتجاه الرصد الجغرافي العلمي إلا أنه يذكر هذا الخبر عن بحر الهند والصين: "والبابة دابة كبيرة تكون في بحر الهند والصين منها ما يكون طوله نحوًا من مائة ذراع في عرض عشرين ذراعًا ينبت على سنام ظهرها حجارة صدفية."[3].

[1]. *آثار البلاد وأخبار العباد*، 83 – 84.

[2]. ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، *المسالك والممالك*، تح: ميكال يان دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، 1889، 181.

[3]. الشريف الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، 94.

كما يذكر عن دابة عظيمة في بحر الصين: لشريف الإدريسي "وفي بحر الصين دابة عظيمة تعريف بالغيدة لها جناحان كالقلاعين تشيلهما في الجو وتحمل على المراكب فتقلبها ويكون طول هذه الدابة مائة ذراع أو نحوها وإذا رأى أهل المراكب هذه الدابة ضربوا الخشب بعضها ببعض فتنفر منها تلك الدابة وتخرج لهم عن الطريق."[1].

كما أن وصف التنين في هذه السرديات غالبًا ما ينحو باتجاه العملقة، نجد هذا في وصف القزويني له في قرية بين حلب وإنطاكية: "كلز قرية من نواحي عزاز بين حلب وإنطاكية، جرى في أواخر ربيع الأول سنة تسع عشرة وستمائة بها أمر عجيب، وشاع ذلك بحلب، وكتب عامل كلز إلى حلب كتابًا بصحة ذلك، وهو أنهم رأوا هناك تنينًا عظيمًا غلظه شبه منارة، اسود اللون ينساب على الأرض، والنار تخرج من فيه ودبره، فما مر على شيء إلا أحرقه، حتر أُحرقت مزارع وأشجار كثيرة. وصادف في طريقه بيوت التركمان وخرقاهاتهم فأحرقها بما فيها من الناس والمواشي، ومر نحو عشرة فراسخ كذلك والناس يشاهدونه من البعد، حتى أغاث الله أهل تلك النواحي بسحابة أقبلت من البحر وتدلت حتى اشتملت عليه ورفعته نحو السماء، والناس يشاهدونه حتى غاب عن أعين الناس، ولقد لف ذنبه على كلب والكلب ينبح في الهواء"[2].

كما تحدث المسعودي عن صفة التنين: "وليس تعرف التنانين في البحر الحبشي، ولا في شيء من خلجانه من حيث وصفنا في نهاياته، وأكثرها يظهر مما يلي بحر أوقيانوس. وقد اختلف الناس في التنين: فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم، وهو الجو، فتحلق السحب كالزوبعة، فإذا صارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت في الهواء ذاهبة الصعداء توهم الناس أنها حيات سود (قد ظهرت من البحر لسواد السحاب، وذهاب الضوء وترادف الرياح). ومنهم من رأى أنها دواب تتكون في قعر البحر، فتعظم وتؤذي دواب البحر، فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها، وأنها على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص، لا تمر بمدينة إلا أتت على ما لا يقدر عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل، وربما تتنفس فتحرق الشجرة الكبيرة فيلقيه السحاب في بلد يأجوج ومأجوج، ويمطر السحاب عليهم، فيقتل التنين، فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج، وهذا القول يُعزى إلى ابن عباس. وقد ذكر قوم في التنين غير ما ذكرنا، وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أمورًا فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها، منها خبر عمران بن جابر الذي صعد في النيل، فأدرك غايته، وعبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وهي دابة ينجر منها على الأرض نحو شبر من قوائمها تغادي قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها (فاغرة فاها نحوها لتبتلع – عند نفسها – الشمس) فعبر –على ما وصفنا من تعلقه – بشعرها الشمس."[3]

[1]. المرجع نفسه، 95.

[2]. *آثار البلاد وأخبار العباد*، 249.

[3]. *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، 97.

وقد ذكر ياقوت الحموي في حديثه عن سد يأجوج ومأجوج صفة التنين، وهي مكونة من العملقة والتركيب، وقد نقد الخبر نافيًا إياه في النهاية: "وروي عن بعضهم أنه قصد موضعًا سقط فيه فوجد طوله نحو الفرسخين وعرضه فرسخ ولونه مثل لون النمر مفلّس كفلوس السمك وله جناحان عظيمان كهيئة أجنحة السمك ورأسه مثل التل العظيم شبه رأس الإنسان وله أذنان مفرطتا الطول وعينان مدورتان كبيرتان جدًا ويتشعب من عنقه ستة أعناق طول كل عنق منها عشرون ذراعًا في كل عنق رأس كرأس الحية؛ قلت: هذه صفة فاسدة لأنه قال أولًا رأس كرأس الإنسان ثم قال ستة رؤوس كرؤوس الحية، وقد نقلته كما وجدته ولكن تركه أولى"[1].

التقزيم:

بالمقابل نجد التقزيم والتصغير عند مدونين مثل القزويني، الفرق بين التقزيم أن التقزيم يكون فيه تشويه، أما التصغير فهو صغر الحجم مع بقاء التناسق الطبيعي المماثل للحجم الطبيعي للمخلوق إذ يقول: حدّث يعقوب بن إسحاق السراج قال: رأيت رجلًا من أهل رومية قال: خرجت في مركب فانكسر وبقيت على لوح. فألقتني الريح إلى بعض الجزائر، فوصلت بها إلى مدينة فيها أناس قاماتهم قدر ذراع وأكثرهم عور، فاجتمع علي جماعة وساقوني إلى ملكهم فأمر بحبسي، فانتهوا بي إلى شيء مثل قفص الطير، أدخلوني به فقمت فكسرته وصرت بينهم، فآمنوني فكنت أعيش فيهم. فإذا في بعض الأيام رأيتهم يستعدون للقتال. فسألتهم عن ذلك فأومأوا إلى عدو لهم يأتيهم في هذا الوقت. فلم تلبث أن طلعت عليهم عصابة من الغرانيق، وكان عورهم من نقر الغرانيق أعينهم. فأخذت عصا وشددت على الغرانيق فطارت ومشت، فأكرموني بعد ذلك إلى أن وجدت جذعين وشددتهما بلحاء الشجر وركبتهما، فرمتني الريح إلى رومية"[2].

كما يذكر أيضًا عن قوم حدد مكانهم بقرب سد الإسكندر: "ومنهم أمة في بعض الجبال بقرب سد الإسكندر قصار القدود عراض الوجوه سود الجلود فيها نقط بيض وصفر، طول كل واحد خمسة أشبار يتوحشون من الخلائق ويتسلقون الأشجار"[3]، وكذلك قال إنهم موجودون في جزيرة الزنج: "ومنها أمة في بعض جزائر الزنج، قاماتهم قدر ذراع وأكثرهم عور

[1]. *معجم البلدان*، ج3، مادة (سد يأجوج ومأجوج).
[2]. *آثار البلاد وأخبار العباد*، 32.
[3]. *عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات*، 382.

وعورهم لمحاربة الغرانيق تأتيهم وتحاربهم كل سنة فتقتل منهم ما شاء الله"[1]، وذكر مثلهم في جزيرة الرامني: "ومنها أمة بجزيرة الرامي، عراة لا يفهم كلامهم وهو شبيه بالصفير، طول أحدهم أربعة أشبار ولهم شعور وزغب أحمر."[2]

كما يذكر ابن خرداذبه عن سكان جزيرة الرامي، التي حدد موضعها على أنها بعد سرنديب: "جزيرة الرامي... وبها ناس عراة في غياض لا يفهم كلامهم لأنه صفير وهم صغار يستوحشون من الناس طول الإنسان منهم أربعة اشبار... شعر رؤوسهم زغب أحمر ويتسلقون على الأشجار بأيديهم من غير أن يضعوا أرجلهم عليها"[3]. مرة أخرى نلاحظ أن معظم هؤلاء الأقوام يوجدون في جزر مجهولة أو محددة تحديدًا غير دقيق.

مرة أخرى نجد حضورًا ليأجوج ومأجوج، لكن هذه المرة باعتبارهم أقزامًا على نحو مفرط، ففي خبر ذي القرنين الذي أورده القزويني: "قبيلتان عظيمتان من الترك من ولد يافث بن نوح، عليه السلام. مسكنهم شرقي الإقليم السابع. روى الشعبي أن ذا القرنين لما وصل إلى أرض يأجوج ومأجوج اجتمع إليه خلق كثير، واستغاثوا من يأجوج ومأجوج وقالوا: أيها الملك المظفر إن وراء هذا الجبل أمما لا يحصيهم إلا الله، يخربون ديارنا ويأكلون زروعنا وثمارنا، ويأكلون كل شيء حتى العشب، ويفترسون الدواب افتراس السباع، ويأكلون حشرات الأرض كلها، ولا ينمو خلق مثل نمائهم، ولا يموت أحدهم حتى يولد له ألف من الولد! قال ذو القرنين: كم صنفهم؟ قالوا: هم أمم لا يحصيهم إلا الله. وأما من قربت منازلهم فست قبائل: يأجوج ومأجوج وتأويل وتاريس ومنسك وكمادى، وكل قبيلة من هؤلاء مثل جميع أهل الأرض، وأما من كان منا بعيدا فأنّا لا نعرفهم. قال ذو القرنين: وما طعامهم؟ قالوا: يقذف البحر إليهم في كل عام سمكتين، ويكون بين رأس كل سمكة وذنبها أكثر من مسيرة عشرة أيام، ويُرزقون من التماسيح والثعابين والتنانين في أيام الربيع، وهم يستمطرونها كما يستمطر الغيث، فإذا مطروا بذلك أخصبوا وسمنوا، وإذا لم يمطروا بذلك أجدبوا وهزلوا. قال ذو القرنين: وما صفتهم؟ قالوا: قصار صلع، عراض الوجوه، مقدار طولهم نصف قامة رجل مربوع، ولهم انياب كأنياب السباع، ومخالب مواضع الأظفار، ولهم صلب عليه شعر، ولهم أذنان عظيمتان: إحداهما على ظاهرها وبر كثير وباطنها أجرد، والأخرى على باطنها وبر كثير وظاهرها أجرد، تلتحف إحداهما وتفترش الأخرى"[4].

وقد ذكرهم القزويني أيضًا في (عجائب المخلوقات): "أمم غريبة الأشكال خلقها الله تعالى في أكناف الأرض وجزائر البحار، منها يأجوج ومأجوج، وهم أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى طول أحدهم نصف قامة رجل، ولهم أنياب كما للسباع

[1]. المرجع السابق، 382.
[2]. المرجع نفسه، 382.
[3]. *المسالك والممالك*، 65.
[4]. *آثار البلاد وأخبار العباد*، 618- 620.

ومخاليب مكان الأظفار وصلب عليه شعر. ومنها منسك وهم جهة المشرق بقرب يأجوج ومأجوج لهم آذان مثل آذان الفيلة كل أذن مثل كساء يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى"[1].

كما نعثر في (معجم البلدان) على النص السردي التالي المتعلق بسد ذي القرنين:"وسار ذو القرنين حتى توسط بلادهم فإذا هم على مقدار واحد، ذكرهم وأنثاهم، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف طول الرجل المربوع، لهم مخاليب في مواضع ولهم أضراس وأنياب كأضراس السباع وأنيابها وأحناك كأحناك الإبل، وعليهم من الشعر ما يواري أجسادهم، ولكل واحد أذنان عظيمتان إحداهما على ظاهرها وبر كثير وباطنها أجرد والأخرى باطنها وبر كثير وظاهرها أجرد يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى، وليس منهم ذكر ولا أنثى إلا ويعرف أجله والوقت الذي يموت فيه، وذلك أنه لا يموت حتى يلد ألف ولد، وهم يرزقون التنين في أيام الربيع ويستمطرونه إذا أبطأ عنهم كما نستمطر المطر فإذا انقطع فيُقذفون في كل عام بواحد فيأكلونه عامهم كله إلى مثله من قابل فيكفيهم على كقرتهم، وهم يتداعون تداعي الحمام ويعوون عواء الكلاب"[2].

إن نصي القزويني وياقوت الحمي يتشابهان في وصف هيئة يأجوج ومأجوج، وهما يدمجان التقزيم بالتركيب، كما يخضعان العضو (الأذن) لحالة مبالغة/ عملقة أيضًا قياسًا إلى بقية الجسد. على هذا فإن صورة يأجوج ومأجوج في التراث العربي الجغرافي متناقضة، بين العملقة تارة والتقزيم تارة أخرى، كما جرى تحديدهم دومًا في جغرافية خارج المحيط العربي والإسلامي، سواء كان ذلك عند الصقالبة أو في الصين.

إن هذه المخلوقات على تنوعها هي جزء من المخيلة والذهنية العربية الإسلامية وحسب، ولكنها أيضًا مرتبطة بالمعرفة الكونية من ناحية أخرى، وما وجود مثل هذه الكائنات إلا إثبات لتصور العالم في صورته الكبرى، و"يوجد المشوهون لأنهم في نظر السارد جزءًا من نسيج العجائبي الملتحم بالواقع. إنهم مثل أي كائنات موجودة، وعلى القارئ أن يفتش عنهم فقط، يركب البحار ويطلع الجبال ويدخل الزائر ليبحث عنهم وحتمًا سيجدهم لأنهم انعكاس لخطايا البشر"[3].

الخاتمة:

لقد شهد العصر الوسيط صعود الأدبيات الجغرافية، وعلى وجه الخصوص مثّل القرنان التاسع والعاشر ذروة هذه المدونات، غير أن الذهنية التي أنتجت هذه النصوص التي تتسم بالعلمية أنتجت إلى جوارها سرديات تقوم على جغرافيا متخيلة/

[1]. *عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات*، 382 – 383.

[2]. *معجم البلدان*، ج3، مادة (سد يأجوج ومأجوج).

[3]. *العجائبي في السرد العربي القديم: مائة ليلة وليلة والحكايات العجيبة والأخبار الغريبة أنموذجاً*. 371.

شبه متخيلة، سواء كانت ذلك في الكتب الجغرافية الصرفة، أو الحكايات ذات الأصل الشفاهي، أو كتب أدب الرحلات، أو كتب التأريخ، وعدا عن السمات البيئة الغرائبية، تميزت هذه الجغرافيات بحضور مخلوقات غروتسكية، جرى تشكيلها من عناصر بشرية وحيوانية بالدرجة الأولى، وقد تم ذلك عبر ثلاث تقنيات: التركيب/ الدمج، والتشويه، والإفراط، وقد كانت هذه السرديات تعرض لغايات إمتاعية أحيانًا، ولغايات العرض المجرد في أحيان أخرى، وقد سردها بعض المؤلفين مع إبداء اعتراضه على واقعيتها. معظم هذه الأمكنة كان جزرًا مجهولة موضعها الرواة بالقرب إلى مناطق جغرافية مشهورة آنذاك، إذ وفر هذا الانقطاع عن اليابسة المعروفة مساحة لصناعة هذه المخلوقات المتخيلة دون إمكانية المساءلة عن صحة واقعيتها.